١ عمرو بن العاص
«محرر مصر من الرومان»

كان واحدًا من ثلاثة وصلت معاداتهم للإسلام ونبيِّه عليه الصلاة والسلام حدًا جعله عليه الصلاة والسلام كان دائم الدعوة عليهم، ويتضرع إلى الله تعالى تقدير أن يُنزل بهم عقابه جزاء ما يصنعون للإسلام ورجاله من الأضرار والشرور. ومع تزايد ضرر وإيذاء هؤلاء الثلاثة لم يكف النبى عن التوجه إلى الله أن يجزيهم بما يفعلون. حتى تنزل الوحى على قلبه الصادق الأمين بهذه الآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[1].

وهنا أدرك النبى معنىَ الأمر الإلـهى الذى تتضمنه هذه الآية الكَريمة، وهو أن يكفَّ عن الدعاء عليهم، وأن يجعل أمرهم إلى الله، فهو القادر على كل شىء، فإما أن يظلوا علىَ شركهم فيحل بهم عذابه، وإمَّا أن يتوب عليهم ويغفر لهم، وهو التواب الغفور.. ولقد أراد الله للثلاثة طريق التوبة، وتحولوا من مناهضين مقاومين للإسلام إلى مؤمنين برسالته مدافعين عنه. وكان عمرو بن العاص أحد هؤلاء الثلاثة. فقد أسلم وآمن، وأصبح صحابياً جليلاً، وقائداً وسياسياً أعزَّ الله به الإسلام، وفتح على يديه «مصر» وغيرها من الأمصار.

إذن ليس مصادفة أن نبدأ بسيرة عمرو بن العاص رضى الله عنه فى حديثنا عن أعلام التاريخ الإسلامى بمصر، فى وجود هذه الكوكبة الشريفة من آل النبى ﷺ،

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٢٨.

obeikandl.com

إذْ كان عمرو هذا هو الصحابى الجليل الذى جعلته الأقدار سبباً لإهداء الإسلام إلى مصر، وإهداء مصر للإسلام.

لقد تعَّود المؤرخون أن يصفوا عَمْراً بفاتح مصر، بيد أن هذا الوصف لدور هذا الصحابى الجليل فيه تجاوز وجَوْر، لما قدمه لمصر من فضل وبركة، ولعل أحق الصفات لدور عمرو فى مصر أن ندعوه بمحرر مصر من الرومان.

فمصر يوم أهَلَّت عليها طلائع الإسلام كانت نهباً للرومان، ومن قبلهم الفُرس والهكسوس، وكان أهلها يقاومون هؤلاء الغزاة بكل ما أُوتوا من حول وقوة، لكن يوم أن دوت فوق مشارف بلادهم صيحات الكتائب الإسلامية المؤمنة بكلمة: «الله أكبر» سارعوا جميعاً فى زحام مجيد، صوب الفَجْر الجديد، وعانقوه، واجدين فيه خلاصهم من قيصر والرومان.

فعمرو ورجاله لم يفتحوا مصر إذن بقدر ما فتحوا أمام مصر الطريق لتصل بالحق مصايرها، وتربط بالعدل مقاديرها، وتجد نفسها وحقيقتها فى ضوء كتاب الله وكلماته، ومبادىء الإسلام.

وكم كان عمرو حريصاً على أن يُباعد أهل مصر عن المعركة، ليظل القتال محصوراً بينه وبين الرومان، ومن أجل ذلك يخاطب أهل مصر قائلا: «إن الله بعث محمداً بالحق، وأمره به، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أدى رسالته ومَضَى بعد أن تركنا على الواضحَة، وكان مما أمَرَنَا به الإعْذَار إلى الناس. فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فَمَنْ أجابنا فهو منا،له ما لنا، وعليه ما علينا. ومن لم يجبنا إلى الإسلام عرضنا عليه الجزية وبذلنا له الحماية والمَنَعة، ولقد أخْبَرنا نبينا أن مصر ستُفتح علينا، وأوصانا بأهلها خيراً فقال: «سَتُفْتَح عليكم ـ بعدى ـ مصْرَ، فاسْتَوْصُوا بِقَبطها خيراً فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً» فإنْ أجَبْتُمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذمة إلى ذمة».

وعندما انتهى عمرو من كلمته صاح الأساقفه والرهبان قائلين: «إنَّ الرحم التى أوصاكم بها نبيكم. لَهِيَ قرابة بعيدةٌ لا يصلُ مِثْلها إلاَّ الأنبياء».

وكانت هذه خير بداية للتفاهم المرجو بين عمرو وأهل مصر.

لكن كيف دخل عمرو الإسلام، وأصبح من الصحابة الأجلاء؟ إن لذلك قصة

عجيبة، ومن عجبها أن يكون إسلامه على يد النجاشى ملك الحبشة، وذلك أن النجاشى كان يعرف عَمْراً بسبب تردده على الحبشة، وفى زيارته الأخيرة ـ قبل إسلامه ـ جاء ذِكْرُ الرسول ﷺ الذى يدعو إلى التوحيد، ويهتف بمكارم الأخلاق، وسأل عاهل الحَبشة عَمْراً: كيف لاتؤمن به وهو رسول الله حقاً؟

ورد عمرو بسؤال: أهو كذلك؟ فأجاب النجاشى: «نعم.. فَأَطِعْنِي يا عَمْرو واتَّبعه، فإنه والله لَعَلَى الحق وليظهرنَّ على مَنْ خالفه».

وعندما عاد عمرو يمم وجهه شطر المدينة ليُسْلم، وفى طريقه وجَدَ خالد بن الوليد، وعثمان بن أبى طلحة ذَاهِبَيْنِ لنفس الغرض، ودخل ثلاثتُهم على النبى ﷺ، واقترب منه عمرو وقال: «يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يُغْفَرَ لى ما تَقَدَّم من ذنبي». فقال النبى ﷺ: «يا عَمْرو، بايعْ، فإن الإسلام. يَجُبُّ ما قبله، والهجرة تجبُّ ما قبلها». ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أسْلَمَ الناسُ وآمَنَ عمرو ابن العاص».

وبعد إسلامه سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «عجبتُ فى ذهنك وعقلك.. كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟».

فقال عمرو: «وما عَجَبُكَ ياعمر فى رجل قلبه بيد غيره، لايستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده». وقال عمر رضى الله عنه: «صَدَقْتَ والله يا عَمرو».

وكان إسلامُ عمرو بن العاص خيراً وبركة على هذا الدين، فقد كافح وجاهد، وعقد له النبى ﷺ اللواء فى غزوة «ذات السلاسل»، وجعله على ثلثمائة من كبار المهاجرين والأنصار، من بينهم أبو بكر الصديق، والفاروق عمر، والقائد أبو عبيدة بن الجراح.. فأظهر كفاءة نادرة.

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى استمر على إيمانه وكفاحه وجهاده فى سبيل نشر دين الله، فاشترك فى حروب الرِّدَّة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، وفى خلافة عمر رضى الله عنه عقد له اللواء على الجيش الذى سار لتحرير فلسطين، وتوالت انتصاراته على الرومان فى الشام، حيث أظهر بسالة فائقة يوم اليرموك، ويوم أجنادين.

وعمرو بن العاص هو الذى طلب من عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يدعو مصر بدعوة الإسلام..

ويوم أن لبى هذا الصحابى الجليل نداء ربه ـ وكان والياً على مصر ـ رفع بصره إلى السماء فى ضراعة وخشوع مناجياً ربه وقال: «اللهم لا بَرِئَ فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإلاَّ تدركنى رحمتك أكُن من الهالكين».

وظل فى ضراعاته وابتهالاته حتى صعدت روحه إلى بارئها، وكانت آخر كلماته: «لا إلـه إلا الله».

وتحت ثرى مصر ـ التى جعلته الأقدار أن يكون سبباً فى دخولها الإسلام ـ ثَوَى جثمان عمرو رضى الله عنه، وفوق أرضها الطيبة لا يزال مجلسه قائماً هناك بالفسطاط (مصر القديمة) تحت سقف مسجده العتيق، مسجد عمرو، كأول مسجد بنى فى مصر على التقوى، «الله أكبر». وليعلن أنه من هنا مَرَّ التاريخ الإسلامى وترك بصماته الخالدة..

ويستوقفنا فيما كُتب فى تاريخ الإسلام عن عمرو بن العاص كتاب الأستاذ العقاد الذى حين يتناول شخصيته، فإنه يبدأ بنشأته فى بطنٍ من بطون قريش المشهورة، وهم بَنُو سَهْم، ويتطرق إلى صفاته الحسية والنفسية والخلقية، معطياً إياه حقه من الدراسة والبحث، ليحدثنا بعد ذلك عن انتقاله من التجارة إلى الإمارة، بما فى ذلك من مفارقات، ومؤكداً قيمة التجارة فى حياة عمرو بن العاص، حيث كانت مدرسته الكبرى فى السياسة والفتوحات.. ثم ينتقل إلى موضوع تحرير مصر، فيقدمه بمسألة بديهية هى أن الصدام بين العرب والرومان كان قدراً محتوماً منذ اللحظة التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية، وكُتبَ لها البقاء، مبرراً ذلك بأن الإسلام رسالة تتجه إلى أسماع الناس وقلوبهم، ولأن للدولة الرومانية سلطاناً قائماً يحول بين رسالته والأسماع، ولهذا يتم تحرير مصر على يدى عمرو بن العاص، مؤكداً أن هذا التحرير لم يكن مكروهاً من سكان مصر وقتئذ، لأنه نَشَرَ الأمنَ والاطمئنان اللَّذَيْن زعزعهما الرومان فى البلاد.

وحين نتوقف مع العقاد عند وصفه لدهاء عمرو بن العاص الذى اشتهر به، نجده يقدمه بأنُه قد أحْصَى العرب دهاتهم فى الإسلام فعدُّوا أربعة، هو منهم،

وجعلوا لكل واحد منهم مزية يمتاز بها عن الآخرين، فقالوا: إن معاوية للرَّوِيَّة، وعمرَو بن العاص للبديهية، والمغيرة للمعضلات، وزياداً لكل كبيرة وصغيرة.

ولو تكلم العرب بالاصطلاح الحديث لقالوا عن عمرو بن العاص: إن حيلته هى حيله العبقرية المطاعَه التى تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم، وآياتها أنها عبقرية مُعبرة، تلهم الخاطر السريع، كما تلهم التعبير عنه فى كلمة وخبر.. وهذه العبقريةالتي يختلط أمرها أحياناً على مَنْ يراقبونها فيتهمونها بالطيش، ويرمونها بالتهور. لأنهم يُسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل، فيبدو لها ما يظل خافياً عليهم، متلبسًا فى أعينهم، ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها فى السرعة والنفاذ. مثلا قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ فقال: «الإصابة بالظن، ومعرفه ما سيكون بما قد كان.»

ويفسر العقاد ذلك بقوله: إن الأصح أن يُقال: إن التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقل عمرو بن العاص نفسه، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة، بين اليقين والتخمين، يأخذ مَنْ أمامه بالنظرة الخاطفة، فإذا هو قد وصل، فى حين أن الذى أمامه لايزال يتحرى طريقه للوصول..

ذلكم هو عمرو بن العاص حقاً وصدقاً.

* * *